الابتكار الحقيقي والابتكار الزائف

بقلم / بيير كامارا

ترجمة / عادل العامل

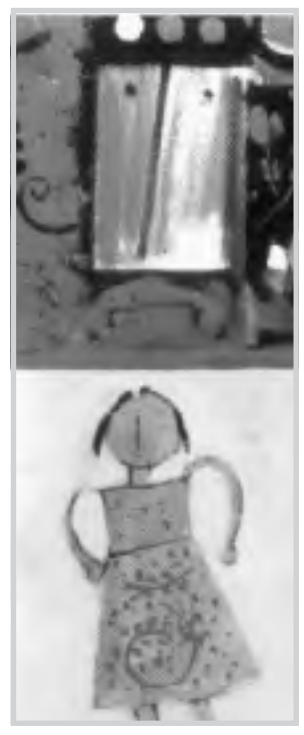

"قبل أيام قليلة فقط من موته، كان لا يزال يعيش" - هذه حقيقة بدهية كلاسيكية. ولكن الحقائق truths، بدلاً من هذا كله، واضحة جداً. وأرجو ونحن نعود إلى مشكلة الفنان خالقاً creator، أن تسمحوا لي بالاشارة إلى أنني استعمل مصطلح "خالق" بنزاهة تامة، حتى إذا كان بعض الفرنسيين يتحاشونه بسبب دلالته اللاهوتية. فأنا أفضله على النعوت الأخرى للكاتب أو الفنان، التي يحسبها هؤلاء أقل مثالية وأقرب إلى الواقع المادي والاقتصادي، كمصطلح منتج producer، على سبيل المثال.

إنني أستعمل مصطلح "خالق" بسبب مجاله الطموح، لا غير. فالخالق، (وأنا في هذه المقالة سأضع قدمي بثبات على الأرض أو، إذا شئتم، في سماء الأدب والفنون!)، هو الشخص الذي أغنى إرثنا بعمل جديد، عمل لم يسبق أن وجد قبله. فهو خالقه، هو وليس أي شيء آخر.

إن ليوتولستوي، مهما قلتم من كلمات أخرى، هو خالق (الحرب والسلام). فهذه الرواية العظيمة لم يسبق أن وجدت قبله. ظهر تولستوي، ركب مادة إنسانية وتاريخية معينة وخلق (الحرب والسلام). فرواية (الحرب والسلام) ظهرت للوجود نتيجة لكدح وموهبة وعبقرية ليوتولستوي.

ويستطيع المرء أن يجادل ويبين الاختلافات، وهو ما ينبغي عمله، كما أعتقد وعلى النقاد وكتاب المقالات والباحثين القيام بهذا. فبوسع المرء أن يقول إن (الحرب والسلام) عمل الشعب الروسي أيضاً، وهي، بطريقة ما، نتاج لفكر ولغة روسيا تلك المرحلة. بوسع المرء أن يقول إن تولستوي لم يخترع كل شيء، لم يبدأ من لا شيء. لا شك في ذلك. ولكنني ما أزال أعود إلى حقيقة أنه قبل تولستوي لم تكن هناك (الحرب والسلام) في خزانة الأدب العالمي، فنحن، بفضل الوجود المستمر لهذا المؤلف الروسي العظيم، نستطيع أن نقرأ ونقرأ مرة بعد أخرى هذه الرائعة. إذاً تولستوي هو خالق (الحرب والسلام).

ويمكن قول الشيء نفسه عن جميع الروائع التي كان لها تأثير عظيم على تاريخ الأدب والفنون. ويستطيع المرء حقاً أن يقول عن مثل هذه الأعمال إنها أحدثت هزة، أحدثت طريقة جديدة في التفكير والكتابة، هزة في أسلوب الكلام، على وجه الدقة. والحقيقة أن بعض الأعمال العظيمة قدم للقراء في وقته أو فيما بعد ذلك شيئاً ما أكثر بكثير مما هو هزة. فقد قام، كما يقوم الآن، بتزويد القراء إلى يومنا هذا ببهجة غير معروفة ولكنه، من وراء هذه البهجة، غالباً ما كشف عن عالم جديدٍ كلياً، عن مجاهل العقل والقلب. أمعنوا النظر في ستاندال و (الأحمر والأسود)، سيرفانتس و (دون كيخوته)، أو فكتور هيجو و(البؤساء)، وفي الكثير من المؤلفين الآخرين الذين قلبوا بنغمياتهم المختلفة وجهات نظر عصرهم الفنية والاجتماعية، وغير عصرهم، أيضاً.

هنا، ربما نستطيع الوصول إلى تعريف لما ندعوه عادة عملاً كلاسيكياً أو خالداً: إنه ذلك العمل الذي يمتلك هذه القدرة بالذات على أن يبطل الأشياء، أن يعلم (أي أن يرينا سبلاً جديدة) على مدى مدة طويلة من الزمن، وربما ما دامت الأفكار والمشاعر كائنة لدى الإنسان.

ولذلك، فإن (الحرب والسلام) ستبقى تحفز العقل والتخيل وتحتفظ بجدتها طالما كان هناك أناس يفكرون في لغة إنسانية.

وقد أحييت في فرنسا كلاسيكيات مثل طرطوف أو لاسيد، في عهود مختلفة، وشوهدت في ضوء مختلف من قبل أجيال جديدة، فكان التجسيد الجديد الأخير لـ (السيد) إذا جاز القول، في زمن البطل السخي المتدفق بالبهجة الذي قدمه جيرارد لأجيال ما بعد الحرب الشابة التي حررتها من الوهم جوانب معينة من الحياة والتاريخ الفرنسيين، والتي وجدت في (رودريكو) لكورنيه، كما قدمه جيرارد فيليب، بطلاً جديداً للاستقلال والشجاعة، (كان المغاربة Moors هنا ذريعة لا غير، فالمسرحية كانت حول الحياة الفرنسية وليس التاريخ الإسباني).

وهكذا، فأنا أعتقد بأن طموح من يغامر على الطريق الصعب للخلق والابتكار ينبغي أن يكون الارتفاع إلى مستوى لقب الخالق الذي اتخذه لنفسه، اي أن عليه أن يخترع، بتعبير آخر، وأن عليه أن يحدث لدى جمهور اليوم، وربما الغد أيضاً، هزة جديدة، أن يظهر طرقاً جديدة لرؤية العالم وللحلم بالعالم.

فبعض الأشخاص يلجأ، بقصد أو بدونه، إلى ما يعتبره الطريقة الفعالة الأسرع. طالما أن (البؤساء) و(مدام بوفاري) كانتا عملاً ناجحاً، فلنفعل الشيء نفسه مرة أخرى، كما يقول. وهذا، للحسرة، ما لايحدث، أو لفترة طويلة. فالمقلدون الأكثر أو الأقل دقةً ليسوا خالقين. المسألة هي، في مختلف الظروف والأحوال، أنه ليس هناك وصفات لصنع أو نسخ رائعة ما. فالرائعة، بطبيعتها، شيء فريد. ليس هناك إلا جيمس جويس واحد، وكافكا واحد، بالرغم من أن لهما، اليوم عشرات المقلدين.

فالوصفة الثانية تتبع خطا بسيطاً ولكن زائفاً من التفكير. كل عمل من أعمال العبقرية أصيل. هذا هو الصحيح... وأرجو أن أكون قد بينت ذلك. وعن طريق تقديم ابتكار بعد آخر يتقدم الكتاب والفنانون إلى مدى أبعد، يجددون ويعطون قوة دافعة جديدة لنهر الإبداع العالمي الواسع - من الشعراء الغنائيين القدامى إلى الفنانين الحديثين. ولكن في الوقت الذي يصح فيه القول إن كل عمل من أعمال العبقرية أصيل، لا يعني هذا أن كل عمل أصيل هو من أعمال العبقرية.

قد يكون صحيحاً أن كل عمل عظيم يسبب إرباكاً، ولكن كل عمل يفعل هذا ليس، بالضرورة، عملاً من أعمال العبقرية. وقد يكون صحيحاً أنه كان على الكتاب العظام - أبو لينير أو جويس - أن يبطلوا استعمال الفواصل أو تركيب الجملة ليخلقوا أعمالاً جديدة، ولكن لا يكفي، لخلق أعمال عظيمة، إبطال استعمال الفواصل أو تركيب الجملة فقط، كما فعلوا. قبل كل شيء، لأن ابطالهم استعمال الفواصل أو تركيب الجملة لم يكن، على الدوام، أمراً أساسياً بالنسبة لهم. فقد كان ذلك هو النتيجة الظاهرة لبحوثهم العميقة. وعلى المرء أن لا يأخذ المظهر على أنه الواقع العميق.

من الواجب على المرء، بالتأكيد، أن يوافق، وبشكل بارز في حالة شخص مثل جيمس جويس، على أن هذا المفعول على اللغة - تركيب الجملة، مجموع المفردات والاختراع - إن كان مهماً، بل عنصراً أساسياً في كتاباتهم، فهل كان العنصر الوحيد؟ دعوني أكرر أن الكلمات ليست قواقع فارغة، أن اللغة لا تحشد قواقع فارغة، فالكلمات واللغة تنطلقان من فم معين لشخص معين. من الصعب، بل ومن المستحيل، في الواقع، فصل الخالق عن الشيء المخلوق. فالخالق ينجز خلقه وفي الوقت ذاته يحقق نفسه، يحول ويكتشف نفسه. وقد وقف المرء، من وقت لآخر، وهو على حقٍ، موقف الاعتراض من دراسة الكتابة الإبداعية دراسة تاريخية وسيراً ذاتية بشكل صارم جداً. وأرى أن من الظلم على حدٍ سواء، وربما أكثر من هذا بكثير، الاعتقاد بشيء مخلوق من دون سلف أو أنه لا ينتسب إلى خالق.

وهكذا، فما دام مثل هذا الخالق يحيا وأنه موجود، ما دام وجوده وجوداً فعالاً، قوياً، مؤثراً وأصيلاً، فإن من الصعب إزالته واستبداله ميكانيكياً بآخر. السنا نزيله إذا ما نحن كررنا نهجه وأسلوبه في الكتابة ميكانيكياً، في الوقت الذي نتجاهل فيه مبدعهما الأساس؟

فلنتفق إذاً، بشكل مؤقت على هذا: إن الابتكار لا يمكن تقليده. بل انني اعتقد بأنه لا يكفي، لتحقيق الجدة، أن نتوق اليها. تماماً كما هو ليس كافياً أن نتوق إلى الصحة الجيدة كي نتمتع بها. إن ذلك يساعد حقاً، لكنه ليس كافياً.

من المرغوب به. طبعاً، أن يتوق الخالق إلى اقتراح شيء ما جديد، اي أن يخلق، في الواقع. فإذا كان التوق مجرد تصريح، فإنه لا يأخذنا بعيداً جداً. ذلك أن القول إن المرء طليعي لا يكفي لوضعه في الطليعة، بل أود أن أذكر بشيء من الخبث إن أبرز صفة في الطليعي، في بعض الحالات، هي صمته. فالقناص الذي يحدث الكثير من الضجة يعرض نفسه لخطر عدم المضي بعيداً جداً في استكشافه. ويمكن للمرء أن يلاحظ أيضاً أن المخترعين والرواد العظام، على مدى العصور، لم يكونوا يظهرون طليعيتهم، على الدوام. فقد كانوا يؤكدونها في أعمالهم. بل أن هناك كتاباً عرفوا بالكشف عن أنفسهم كمحافظين، إن لم أقل كرجعيين، بينما هم، في الوقت نفسه، يبدعون أعمالاً فيها جدة بلزاك.

لقد قمنا بمعرفتنا لما هو الابتكار الزائف، بحل نصف المشكلة. وعلينا الآن أن ننظر في الابتكار الحقيقي. كيف يحقق، كيف يخلق الأعمال الجديدة التي يتطلع اليها بحق أولئك الذين يريدون أن يكونوا خالقين؟ أليس هناك ما يمكننا تعلمه من مثال رجال الماضي العظماء؟

أعتقد بإيمان كامل، خلافاً لذلك، بأن مثال المبتكرين العظام مهم جداً وضروري إلى الحد الذي ندرك أن التقليد لدرجة المحاكاة أمر عقيم وأنه ليس هناك من وصفات جاهزة. يمكننا أن نستنسخ (الأحمر والأسود) بوسائل ميكانيكية أو كيمياوية بشكل دقيق تقريباً (و"تقريباً" هنا أداة تحديد مهمة)، ونعيد رسم (فينوس ميلو) أو (الجيوكندا)، ولكن ما من جهاز ميكانيكي أو كيمياوي سيمكننا من خلق عمل بنوعيتهما. ومع ذلك، قد نسأل أنفسنا ما الذي شكل آنذاك، ولا يزال يشكل اليوم، القيمة الجديدة لرائعة متميزة؟

بهذا، كنقطة بداية لنا، وبهذا وحده، يمكننا أن نأمل في خلق جديد. ولكن ليس من الممكن أن تكون هناك ضمانة لهذا. فعندما تتخلف أمثلة الماضي العظيمة ودروسه البليغة إلى وراء، تبدأ المسؤولية الشخصية لكل خالق، وتأتي اللحظة التي لا يكون هناك فيها من يرشد قلمك أو إزميلك سواك. فأنت تعمل بمفردك وعلى مسؤوليتك.

ولكنك، حتى تلك اللحظة، لم تكن وحدك، وينبغي أن لا تكون وحدك. فأنت مهتم، وينبغي أن تكون مهتماً، بالعالم والأفراد. فالسمة المميزة للأعمال العظيمة الجديدة وللمبتكرين العظام، كما أعتقد، هي أنهم، في لحظة محددة، كانوا الناطقين المهمين بلسان التاريخ والعالم. وهذه حقيقة بارزة الوضوح. وهي، في حالة فولتير وهيجو، زولا وغوركي...، حقيقة من السهل تأكيدها. أما في حالة أولئك الذين تبدو عبقريتهم أكثر شخصية وخصوصية، فقد أخذ الأمر منا وقتاً لتقدير حسنتهم بأعتبارها بشائر، ولإدراك أنهم كانوا يعبرون باروع وأحياناً بأسوأ أسلوب، عن لحظة خاصة في التاريخ الإنساني. إلا أن عملهم قد أنشأ علامته المميزة بعناد... وأنا، هنا، أفكر ببودلير، رامبو أو بمن هو أقرب إلى عهدنا، تزارا... وهذه نقطة يمكن تطويرها بتفصيل تام. فأنا أحدد نفسي، هنا، بذكر ملاحظتي هذه، لا أكثر.

إذا لا يكفي القول إن أصواتاً عظيمة قد وجدت. يجب على المرء أن يسأل كيف ولماذا توصلوا إلى تعبير بليغ، متوقد وثابت كهذا، أن يقدم سلفاً إجابة متأنية للكثير من انشغالات الأجيال اللاحقة... لماذا؟ هذا ما يجب أن يسأله المرء.

إن الأعمال العظيمة الجديدة لا تقوم فقط بالكشف عن لحظة ما في التاريخ العالمي: إنها تتخلل، تتخللها باتجاه إنساني. حاول أن تسمي لي عملاً من أعمال العبقرية ليس إنسانياً. وهذه ليست قضية اكتشاف للانتماءات السياسية لكتاب الماضي إنطلاقاً من الوعي السياسي الذي نمتلكه، اليوم. فالأعمال العظيمة تساعد على استمرارية الإنسان، وهدايته الإنسانية. إنها تساعد على تقدمه، تلهمه الأغنيات، تساعد روح الاستكشاف وروح النقد، وتعيد أجنحة للتخيل والأحلام. وفي هذه الحالة، فحتى لو أن الأقلية فقط هي التي هللت لها، في البدء، فإنها ستتحدث، في المستقبل، إلى الجماهير الواسعة.

وينبغي للمرء أن يضع تأكيداً استثنائياً على هذه الفكرة العامة عن المستقبل. فالخالقون يساعدون على خلق المستقبل. وبهذا المعنى، فإن قول أوسكار وايلد: "الفن يخلق الحياة" يمتلك معنى عميقاً. فالشاعر المتميز بالعبقرية يهيئ لغة المستقبل. وهو، بهذا المعنى، قد يربك القراء المعاصرين له للحظة، ولكن، فيما بعد، يصبح الكتاب المغلق، كما قالت الزاتريوليه، الوضوح ذاته، وقد أصبحت صيغ مايا كوفسكي المحيرة الوضوح ذاته - الخبز اليومي لملايين القراء، اليوم.

هذا يعني أن المؤلف، في بداية الابتكار، ملتحم بالعالم بصورة غير محدودة، وأن محصوله ضخم ومتواصل، ويجب عليه أن يضع للخزن مقداراً عظيماً. وسواء اختار جانباً أم لا - وليس هناك مجال للتساؤل عما يأمره بذلك - فإن عليه أن يبقى عينيه مفتوحتين.

لا. إنه لا يخلق من لا شيء. ومن يستطيع ذلك؟ إن من الصعوبة بمكان -مؤلفو الادب القصصي العلمي يعرفون هذا جيداً، أن تخترع شيئاً لم يوجد من قبل على الإطلاق.

ولذلك، يجب على الخالق أن يكون متفتحاً على عذابات وآمال العالم والأفراد. وهو لا يخلق من لا شيء أيضاً. فهناك آخرون قبله، استكشفوا وانتجوا محصولاً قبل أن يفعل هو بزمن طويل. لقد قدم له الآخرون الأصول، الكلمات، اللغة. وسيخلق هو، بالطبع، لغته الخاصة، سيخترع كلمات أخرى، صياغات لغوية أخرى للعبارة وإيقاعات أخرى. ولكن قبل أن يعطي هو نفسه، كان يتشرب....

وبدءاً بهذه الغلة، سيكون عليه أن يعجن خبزه الخاص، وهنا تنشأ فترة انفراد معين، بل انفراد محدد، انفراد له عذاباته وعظمته أيضاً. إنها عظمة المستكشف وعظمة مسؤوليته.

وأختم هاتين الملاحظتين الخاصتين بي، بإشارة أخيرة عن هذه المسؤولية. فقد أحس بها أعظم الأشخاص، على الدوام، وبطريقة مؤشرة، أحياناً.

إن الخالق يبقى، في لحظات الانفراد - ويجب أن يعي هذا، إنساناً اجتماعياً. فالقليل فقط من الكتاب والفنانين يكتب من أجل "القلة السعيدة". وهم، كقاعدة، يودون أن تكون إنساناً اجتماعياً، يعني أن تخاطر بإقلاق الآخرين والتسبب في إيلامهم. إن من يلقي بكلماته للريح، بدون تفكير بالعواقب، هو فنان خطر، وربما تافه. فالكلمات ليس ألاعيب. والقصائد ليست، دائماً، ألاعيب. فالجمل التي يكتبها الخالقون قد تحمل عسلاً أو سمناً، نوراً أو ظلالاً.. وأنا، هنا، لا أفكر فقط بالقراء الشباب الذين يمكن للمرء أن يربكهم، يفسدهم أو يكبتهم.. سيخبرني البعض بأنه يودان يقلق ويربك الآخرين ليثير يقظتهم أو إحساسهم النقدي... لا! ولكن لندع الخالق يكون واعياً، وفوق كل شيء، شاعراً بإحساس من المسؤولية نحو العمل الذي يعطيه اتجاهاً معيناً ويقدمه بطريقة معينة.

هذه ملاحظات شخصية قليلة. وهي تقودنا فقط إلى مرحلة التحضير للعمل الإبداعي... هل سيستحق خلقنا هذا الاسم؟ هل سيكون جديداً حقاً، ابتكاريا حقاً؟ لا أحد يمكنه أن يقول شيئاً.

إنه لجانب آخر من جوانب عظمة الفنان أن يكون ملزماً هكذا بأن يدفع سلفاً من دون أية ضمانة في تعويض نهائي. والحق أن جماهير القراء، عندما تقدم التعويض، فإنها تفعل ذلك بسخاء وحماس منقطعي النظير. وأنا أطلب من المؤلفين أن يكتبوا للناس. وأطلب منهم أن يتأملوا في حب الكتب والثقافة الذي يبديه الناس المتحررون، على الدوام، وإني لمقتنع تماماً بأن الخلق والتحرر يسيران معاً يداً بيد.

إن المشكلة الكبيرة التي تواجه الفنان الخلاق، كما أعتقد، هي مشكلة الاختراع invention. فعقل الانسان، في الغالب، ظاهري ومكتف بالمظاهر. والحقائق البدهية تعبر جوهرياً عن حقيقة واقعية وعميقة. ومن المفيد التمعن فيها وتقليبها في الذهن.

ملامح من خطاب ثقافي لمواجهة ما بعد الفاشية
ودونكم محرمات الخراب في الجامعات والحياة الجامعية

(٣-٤)

قاسم عبد الامير عجام

ولعلنا في هذه الساحة على اشد ما نكون حاجة للعديد من الواجبات المبدئية التي ننطلق منها لإزالة خراب الحياة الجامعية. فالصف الوطني الموحد بكل افكاره لا بد أن يتوحد على قاسم مشترك هو تطهير الحياة الجامعية من ادران الفاشية الصدامية وارساء حرية الفكر والبحث العلمي. والمثابرة في مواصلة الهجوم على قواعد وبؤر الفاشية المتخفية والمتلفعة برداء الانتهازية سترفد وحدة الصف الوطني بالمزيد من العزم. واشراك الوسط الطلابي وممثليه في ذلك الهجوم واجب يرفد المثابرة والعزم ويعزز من وحدة الصف المضاد للفاشية التي دمرت الجامعة وتقاليد التعليم العالي والبحث العلمي. ولا بد أن يكون كل ذلك ضمن رؤية تؤمن للجامعة دورها التخصصي والثقافي العام. ليست المناهج هنا هي المفتاح للتغيير كما قد يتبادر لأذهان الكثيرين - وأن كان تغيير أو تطوير مفردات الكثير منها مهمة اساسية من مهمات إزالة خراب الحياة الجامعية - وإنما تفكيك البنية الادارية والتدريسية هي المنطلق. لماذا؟ لأن النظام السابق - على عادته في عسكرة المجتمع - أحال الجامعات إلى مراكز لاحكام الهيمنة على الشباب ثم تأمين تلك الهيمنة من خلال نزع الافق الثقافي من حصيلتهم التخصصية. وكانت أدواته الاساسية في ذلك ١- الادارات المرتبطة بالجهاز الحزبي والمخابرات بصرف النظر عن مستواها العلمي. ٢- اعتماد مبدأ الولاء للنظام من خلال ما يسمى بالسلامة الفكرية والسلامة الامنية في تعيين المدرسين أو ترشيح الطلبة للدراسات العليا دونما تركيز على المستوى العلمي أو الاداء التدريسي مما جعل المستفيدين من ذلك قنوات لأمرار توجيهات القيادة الفاشية بصرف النظر عن اتفاقها مع اخلاقيات العلم والحياة الجامعية.. وفتح الطريق أمام تراجع المستوى العلمي وتردي الأداء التدريسي.

٣- المغريات المتلاحقة وتيسير المكاسب المادية حتى لو كانت محرمة للمهيمنين على الادارة الجامعية أو الكوادر الحزبية التي تتقاسم المكاسب مع الادارات تقاسمها العمل على اخضاع الوسط الجامعي - اساتذة وطلاباً - لارادة الطاغية ومخططاته في الغاء هوية الشعب ومصادرة ارادته.

وهكذا يكون البد بالهجوم على تلك الادوات هو البداية الملائمة للهجوم على خراب الحياة الجامعية. ولنتصارح هنا بشأن ما حدث حتى الآن بعد سقوط النظام.. إن الانتخابات التي جاءت بادارات جديدة لم تأت بالافضل في مؤهلاتهم العلمية ولن نبالغ بالقول إن العديد من الانتخابات قد شهدت مساومات وترضيات أمنت سريان المبدأ البعثي القديم.. الانحناء أمام العاصفة، دون تغيير حقيقي في المشهد الجامعي ولا سيما ان شلل المنتفعين لم تتمزق خيوط تشكيلاتها لتبقى شباكاً معادية للتغيير الحقيقي الذي ننشده.. التغيير المفضي إلى ارساء القيم العلمية في الادارة والتقويم والمناهج وخطط العمل.

فلنرفع الصوت بوضوح وثبات ندعو إلى مراجعة دقيقة للسبل التي حملت غير المؤهلين بالحق إلى منصات الدرس.. فليس سراً أن العديد من (الأطاريح) قد كتبت لقاء ثمن كي يركبها مدللو البعث نحو كراسي الاستاذية! فلنبعد هؤلاء من الجامعة أصلاً قبل محاكمتهم بتهمة الغش والتدليس، وعلناً! نعم علناً كي نشعر الطلبة الجدد بانتصار المعيار العلمي وحده.

ولنبدأ مراجعة عميقة لمستويات اداء (الحشد البعثي) الذي كونوه على غير اساس من القدرة والعلم كي يبعدوا الاساتذة الاكفاء.. تمهيداً لتصفية شاملة على قاعدة لا يصح إلا الصحيح وهذا يتطلب الوجه الثاني للعلمية وهو فتح ابواب الجامعات للاكفاء من المؤهلين ولا سيما الذين ابعدوا لأسباب السلامة الفكرية أو الأمنية أو حتى لمجرد أن يتخلص منهم ازلام السلطة على طريقة صراع الردئ ضد الجيد! ومن المتوقع بل من الضروري أن تكون هذه المراجعة عميقة الصوت في الكليات (الإنسانية) وأن نبدأ بها ما دمنا بصدد خطاب ثقافي مختلف. وفي هذه الكليات تستوي في الشدة والحسم والمثابرة عملية تغيير الادارات والمناهج معاً.. من منطلق فتح الجامعات لرياح الفكر وتقاليد الثقافة الرفيعة، وقاعدتها الاساس.. حرية الفكر! حرية الاجتهاد والحوار والبحث العلمي. وعلى هذه القاعدة نؤسس العلاقات مع المجتمع واحتياجاته المادية والروحية كي تكون العلوم الحديثة ومناهج البحث والافكار قوى دافعة ومغيرة لها وجود في الحياة اليومية للناس بتكامل مع ستراتيجية الثقافة الجديدة التي نريدها لمجتمع ديموقراطي.

ونزعم، وبكثير من الثقة، إن التغيير العميق في الجامعة قاعدة من قواعد التغيير الثقافي العام وأن كثيراً مما عانته الحياة الاجتماعية والثقافية بخاصة، ولا تزال تعانيه، من انغلاق وضيق أفق وضيق بالرأي الآخر سببه انحطاط المستوى العلمي والثقافي العام لخريجي الجامعة وجهل اكثرهم حتى بمفردات اختصاصهم الدقيق لأن كثيرين منهم قد دخلوا الجامعة على غير معيار علمي ولأن (اساتذتهم) صنائع المعايير والارادة المخابراتية! فلنكتب في هذا حتى نرى الجامعة وهي تخرج من شرنقة الفاشية، ولندعو جميع المنابر الثقافية لفتح كل ملفات الجامعات ولتقيام معها حواراً نقدياً ساخناً. وليتوجه المثقفون نحو ساحات الطلبة وقاعات المنتديات الجامعية ليكشفوا لهم العزلة التي أغرقهم النظام في بئرها المظلمة.

*تعالوا ندعو طلبتنا للعودة إلى ممارسة السياسة الحق على مبدأ مصلحة الشعب العليا.. مصلحة الوطن!

*لنمارس معهم وامامهم لغة الحوار الراقي واساليبه، ولنشركهم فيه. ولنشركهم في مشاريع ثقافية تعتمد قواعد البحث العلمي، ولنشغل فيهم عوامل الجرأة على مفردات الخراب، والقوة في نقد الواقع المحيط بهم في ضوء الحقيقة الموضوعية والصدق في مواجهة الاحتياجات الحقيقية للعيش والفكر معاً.

*وفي زعمنا إن الخطاب الثقافي المتعلق بالجامعة والحياة الجامعية تتسع للعديد العديد من مناهج التفكير والخطاب وللعديد من الاقلام المختصة.. بالفكر العام، بالسياسة، بالتاريخ، بالأدب، بالاجتماع، بالعلم التطبيقي.

ولا بد لتلك الاقلام من أن تخوض الصراع مفتوحاً ضد الزيف الذي اعتمده البعثيون في تدمير الحياة الجامعية وحرمان المجتمع منها. وضد شبكات المنتفعين الذين تخلوا مختارين، أو بحكم الاعتياد، عن تقاليد العلم ومعاييره وشروطه الثابتة في الرفض والقبول. وحين نخوض هذا الصراع سنجد إننا نخوضه ضد القبح والرداءة اللذين أشاعهما المداحون المتكسبون بالكلمة! وإلا هل هناك أشد قبحاً من جاهل أو مزيف يعتلي منصة الدرس الجامعي دونما أهلية علمية؟! فابحثوا عن امثاله فستجدونهم اكثر! ابحثوا، لتروا جريمة الفاشية التي حرمتنا من جامعاتنا وكي ندرك كم نحن بحاجة إلى هتك محرمات تلك الفاشية وفضائحها..

*وفي جميع تلك الخطى والمساعي لا بد أن تبقى الاستراتيجية العامة تحكمها جميعاً، وهي استراتيجية نشر وتعميق البعد الثقافي للعمل الجامعي بحثاً وتدريساً، وهذا لا ينفصل عن استراتيجية فرعية تستهدف نقل نتائج البحوث الجامعية إلى الواقع وتنشيط الجهد الفلسفي الذي يستخلص الدرس المعرفي من متغيرات الواقع ومحصلة تلك الابحاث وتطبيقها.

*ولنتذكر أن العسف الفاشي قد أصاب الفلسفة كدرس بالذات بالضمور وخفوت الصوت ومن هنا يضعها ويضعنا جميعاً أمام مهمة فتح الدرس الفلسفي على المتغيرات السياسية والاقتصادية في العالم وإعادة قراءة الحدث العراقي في ضوء تلك المتغيرات إذ لا شيء كالحرية ينعش الفكر ويجسد الرؤى ويبث الفعالية في الدرس. على أن ما نتمناه من شوط ثقافي مباشر للجامعة لا يمكن فصله عما ينبغي للمدارس الابتدائية والمتوسطة والاعدادية أن تسهم فيه من تأسيس للتلقي الثقافي وبناء أو صقل المواهب التي تأتلق في تلك المراحل. ومن هنا لا بد أن نتطلع لخطط تضع جسوراً راسخة بين الجامعات والحياة الثقافية دعاماتها مراحل التربية والتعليم الاولى تلك وما لم يكن التواصل العضوي بينها جميعاً وبين التوجهات الثقافية العامة فلن نجد إلا عطاءً أقل مما نطمح اليه! ولعلنا في سعينا للربط بين التربية الاولى والتعليم المبكر وبين الجامعة لا نشيد واقعاً ثقافياً جديداً فقط وإنما نقيمه على أنقاض بناء كان يعتمد ربطاً مشابهاً ولكنه يقوم على هياكل الخراب والخواء.. إذ امتد الخراب الروحي والتعليمي منذ الابتدائية صعوداً إلى الخراب الجامعي وخواء المحصلة. فكانت الجامعة تشكو قصور الاعدادية وهذه تلعن امية المتوسطة التي بدورها تتهم الابتدائية بكل العيوب والقصور!

وإذا كنا في سعينا لترسيخ التواصل العضوي من قاعدة التعلم إلى قمة المعرفة نتحرك على مسارات الفكر والاهداف المعرفية المؤثرة في الواقع، بنية وأهدافاً، فان ثمة تحركاً مشتركاً على ساحتي القاعدة والقمة نفسهما لكنه على مسار آخر هو مسار المعلم. فمثلما سقط التعليم الابتدائي تحت سنابك التبعيث القسري للادارات المدرسية والمعلمين، فان سقوط التعليم الجامعي والبحث العلمي كان نتيجة مباشرة لغزو منصات الدرس الجامعي ومختبرات البحث بمفارز الاتباع الموالين المدججين بالمنافع العزل من العلم والخبرة.

وهذه الحقيقة تعيدنا إلى اساس متين من أسس العمل الثقافي، وهو المبدأ والمعاد في كل تقدم.. إنه مبدأ الشخص المناسب في المكان المناسب. إنه في العمل الثقافي مهمة أولى ودائمة، إذ لا ثقافة دون مثقفين. ولا مؤسسات ثقافية فعالة دون قيادة المثقفين لها، وهو ما يفتح ملف المؤسسات الثقافية وأهمية بنائها الجديد وتجديد اولوياتها وتوجهاتها ومفردات عملها وتشعباتها. ولكننا نكتفي بهذه الومضة التي تنبثق من ذلك المبدأ الأهم لأن هذه الورقة معنية بالاساس بالخطاب الثقافي. ولكننا لن نستطيع المضي في الحديث فيه دون الالتفاف إلى اهمية أن يكون لنا مؤسسات تدرك ذلك الخطاب وتحمله وتبدع في بثه.

.. ثم نعود إلى تطلعنا في مفردات الخطاب الثقافي الجديد، فنجد إننا امام محرمات أخرى من محرمات الخراب ولا بد من اسقاطها خرقاً بعد خرق.. ودونكم محرماً رابعاً من محرمات الخراب..

الهواء يحصبه

هاشم تايه

في قيامة الرصيف
أنتظر يومي
الذي ذهب، منذ الأزل،
يحصد مأواه،
وزينته،
وما كان يدعوه،
في أمسه الفاني،
بالأمل...
سوف ينزف خطىً محرقةً، يومي
بطير في لسانه،
وشجرة في قلبه
يمضي
الهواء يحصبه،
والشمس تشد أزره.
عاريومي
كدمعته على وجنتي..
ليت أذنيه
أشرعتا الباب
لأختنا البصارة
بلسانها الطبيب،
لكنه يقول:
إنها بطرة،
لا تملك ما تستر به فظاظتها،
ولا تجيء
إلا بالدخان
على الراحتين...
يومي المتطير
يخشى أن أقلع،
ولهذا دق على قدمي جلموداً
وأغراني بقطعة حلوى
دسها في عيني،
ولكي يعلقني في يقينه
استل ذاك الشرطي،
وأوقعه على رأسي...
لا بد أن أقول:
مسكين يومي،
إنه لا يعلم،
وهو يرتطم بخطاه،
أن جلموده سال وجهي عليه،
فألقاني عنه،
وأن شرطيه كنسته غفوة،
ودسته في نهر.
.....
عالياً
لا تظللني قيامته
أطير..